ويشتد ، ووجد في تيارات الرومنسية وشعرائها ومفكريها حليفا ومطية في كثير من الاحيان · فمن السهل ان تتبدل المشاعر ، وتفقد العاطفة اتجاهها دون قيادة العقل· لذلك تحول كثير من الشعراء الرومنسيين من امثال كوليردج ووردزورث من الحماس الاول للثورة الفرنسية ، الى الاشمئزاز والنفور نتيجة الصراعات الدموية ، ونتيجة الحملات البونابرتية التي اصطدمت بنمو وتفجر المشاعرالقومية الوطنية على الصعيد الاوروبي كله · وكان الايسر للقوى الرجعية السياسية والدينية ، التي عجزت عنمواجهة سلاح العقل ، ان تجد ضالتها في مناشدة الغرائز ، والعواطف والقلب البشري ·

لقد قلبت القوى المحافظة فلسفات التاريخ الثورية والتقدمية ، ومفاهيم الرومنسيين عن النمو والتطور الى ادوات لوقف كل نمو ، ومناهضة كل تطور وتغيير · جدل التاريخ الذي يعبر عن منطق حركته وتقدمه عبر مراحل يقود كل منها الى ما يليها صوب الحرية · وهو الجانب العبقري في فلسفة هيجل للتاريخ ، والذي سيكون له ابعد الاثر في الفكر البشري التقدمي على يد اليسار الهيجلي ، هذا الجدل ، والمفهوم التاريخي الجديد ، استغل اسوأ استغلال من جانب المحافظين اعداء التنوير والثورة · فقد استغلت « المدرسة التاريخية الوطنية » في المانيا هذا المنطق لتبرير كل ردة تاريخية ، ودعم كل نظام او مؤسسة او دولة مهما كانت رجعيتها · اصبح المفهوم الهيجلي ، عن التفتح والحركة في التاريخ يعني لدى رجال هذه المدرسة تبرير المحافظة والثبات والجمود تحت شعار « دعه يعمل » بمعنى منع اي عمل ثوري او تدخل من جانب قوى التغيير ، حتى تتاح الفرصة للنمو الطبيعي والتفتح ، والتغير من الداخل، من الذات · وبذلك استبعد العقل كقوة للتغيير والحركة ، وتجمدت الاشكال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ووجدت الرجعية تبريرا لجمودها ولمناهضة قوى الثورة · واصبح سافيني هو الداعية النظري والرسمي لهذا التطبيق الجديد لمذهب ونمو الرومنسي ، في مصلحة المحافظة والرجعية والثورة المضادة (٢٠) ·

بهذا المنطق اصبح الحاضر مشدودا الى الماضي ، واكتسب الماضي اهمية مطلقة ، واصبحت محافظة الامة على كيانها المستمد من الماضي ، تعني الجمود بل الارتداد الى هذا الماضي ، فليست الامة اليوم سوى امتداد للامة الازلية ، وهي في حاضرها انما تجسد ارث الماضي · واصبح هذا الفكر هو جوهر مفهوم القومية الرجعية ، الذي سيكتب له الغلبة والسيطرة خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر · وبذلك انقلب المفهوم الرومنسي عن النمو والنضج من الداخل الى قوة محافظة ومناهضة للثورة ·

وقد بدأ بالفعل رد الفعل الرومنسي منذ احداث ١٧٩٤ الدامية في فرنسا ،